اعترافات فتى العصر

لألفريد دى موسيه

بقلم الأستاذ فليكس فارس

الفصل الخامس

وكنت وديجنه جالسين ذات مساء قرب الموقد والنافذة مفتوحة ، إذ كنا فى أوائل مارس ، وقد انقطع مطر النهار ، فهبت علينا من الحديقة طلائع عبقات الربيع

وقلت لديجنه : ماذا تريد أن تفعل فى الربيع فانى أشعر بحاجة إلى السفر ؟

قال : سأفعل ما فعلته السنة الماضية ، فأذهب إلى الضاحية عند ما يحين الزمان

فقلت : أفتريد أن تسير فى كل سنة على وتيرة واحدة

فقال : وماذا تريد أن أفعل ؟

فنهضت فجأة وصحت به : أجل ، قلت حقاً يا ديجنه ... فأنا قد تعبت من كل هذا ، أفما مللت أنت هذه الحياة ؟

فأجاب : كلا !

وكنت واقفاً أمام رسم المجدلية فى الصحراء فضربت يداً بيد بحركة اغتصابية فسألنى ديجنه : ما هذا ؟

فقلت : لو كنت رساماً ولاح لى أن أصور السآمة والضجر لما كنت أرسم رمزها فتاة مستغرقة فى التفكير وفى يدها كتاب

فقال : هل تكيد لأحد هذا المساء ؟

ولم تستوقفنى ابتسامته فقلت : إن هذه المجدلية الغارقة بدموعها لم يزل صدرها ناهداً بالأمل ، ويدها الناحلة التى تستند إليها رأساً لم تزل تعبق بالعطر الذى سكبته على قدمى المسيح ، وهذه الصحراء وما حولها آهلة بأشباح أفكار تتجه بالصلاة إلى الله فقل لى أهذا هو رمز السآمة والضجر ؟

فقال بصوت لا أثر للشعور فيه : ليس هنا إلا امرأة تطالع كتاباً

فقلت : ولكن هذه المرأة سعيدة والكتاب الذى تطالعه جليل

وأدرك ديجنه ما أرمى إليه ، وأنا مستسلم للأسى ، فسألنى عما ألم بى ، ولكننى ترددت فى الجواب فكأن يداً ربطت على قلبى

وبعد صمت قصير قال ديجنه : إذا كان هنالك ما يؤلمك فلا تكتمه عنى وأنت تعلم أننى لك خير صديق

فقلت : أعلم أن لى صديقاً ولكن آلامى لا صديق لها

وألح على فقلت : إذا أعربت لك عما يخالجنى فما يفيدك ذلك وأنت عاجز عن تفريج كربى وأنا أعجز منك . أوتريد سبر أعماق سريرتى ، أم أنت تطالب كلمة أنتحل لك فيها الأعذار ؟

فقال : كُنْ حرَّ الضمير

فقلت : اسمع إذاً ... لقد بذلت نصحك لى فيما مضى ، فاصغ الى الآن كما أصغيت حينئذ إليك

قف أمام أى رجل كان وقل له إن فى الحياة أناساً يمضون أيامهم فى احتساء الخمر وركوب الخيل والضحك واللعب واغتنام فرص اللذات بأنواعها ، فلاشىء يحول دون مضيهم على السبيل الذى اختاروه لأن شريعتهم تقوم على استحسانهم ، ولهم من يشاؤون من النساء لأنهم أغنياء ، ولا هم لهم ، فكل أيامهم أعياد

فاذا لم يكن هذا الرجل الذى تخاطبه من أهل الورع والتقى فانه ليقول لك إن هذه الحياة نهاية ما يتصوره الانسان من سعادة على الأرض

خذ بهذا الرجل واقذف به الى هذه الحياة التى وصفت ، أجلسه الى مائدة قرب امرأة وضع كأساً فى يده وانفحه كل صباح ببذرة من الذهب وقل له : هذه هى حياتك : بينما تكون ناعماً الى جنب عشيقتك تكون خيولك تحفش على مرابطها ، وبينما تكون ممتطيا جوادك يقرع المتنزهات بحوافره ، يكون شرابك يغلى مختمراً فى دنانه . وبينما تحيى ليلك شارباً ثملاً ، يكون أرباب المصارف يعملون على إنماء ثروتك . فما عليك إلا إبداء رغباتك لتنقلب أمانيك حقائق . أنت أسعد الناس ولكن حذار أن تفرط فى الشرب فى ليلة من لياليك ، فتجد جسدك بعيدا عن تذوق ملذاتك لأن كل مصيبة تجد عزاءها ما عدا هذه المصيبة الدهماء . لقد يكبو جوادك فى الغاب وأنت تلهو بالطراد مع رفاقك فتتدهور الى مستنقع ، وإذ تستغيث لا يصل صوتك الى آذان هؤلاء الصحاب وقد أصمهم السكر وجلبة الحبور . حذار أن يروا بك دون أن يعثروا عليك فيتوارون عنك وأنت ترحف بأعضائك المحطمة تحت جنح الليل

لا بد أن تخسر بالمقامرة فى ليلة من لياليك فلتحظ ساعاته السوداء ، فاذا ما عدت إلى منزلك لتجلس أمام موقدك ، حاذر أن تضرب جبينك بيدك وأن تدع الأسى يبالى أجفانك ، وأن تدير لحاظك مفتشاً عن صديق . إحذر بخاصة ألا يجمح بك خيالك الى كوخ ينام فيه زوجان على فراش الطمأنينة وقد اشتبكت أناملى أحدهما بأناملى الآخر حتى فى الرقاد . لأنك ان ترى أمامك على فراشك الفخم الوثير من تسر إليه نجواك سوى المخلوقة الشاحبة التى تتمشق دنانيرك ، وإذا ما لجأت إليها لتشرح صدرك فان يخفى عليها أمرك وسبب حزنك إنها لتشمر بفداحة خسارتك فتذهب دموعك مثيرة فى قلبها الشجون ، لأنها ستشمر من دموعك هذه بخطر يتهدد ثوبها بألا يتجدد والخواتم التى تلمع فى أناملها بأن تسقط منها

حذار ، يا هذا ، أن تفوه أمامها باسم من ربح مالك هذا المساء فلقد تلتقيه هى غداً فترسل إليه لحظات الأغواء من خلال ما يحوطك من خرائب وأطلال

ذلك هو الضعف البشرى ، أيها الرجل ، فهل لك من قوة تحتمل مثل هذا الضعف ؟

إذا كنت رجلا فاحذر السآمة ، إنها لداء عياء ، والموت خير من حى سئم الحياة

إحذر الحب إذا كان لك قلب لأن الحب عار الفاسقين ، وخير لهم أن يصابوا بأى داء من أن يصبحوا مهزلة فى أعين أمثالهم المقدرين لكل خليلة

ثمناً . وليس المرأة التي تبيع نفسها أن تحتقر أحداً إلا الرجل الذي يحبها ...

إذا ما شعرت بالحب يجتاح قلبك فاحذر أن ينم وجهك عليه ... فما يتخلى عن درعه إلا الجندي الجبان . وعلى الفاسق ألا يظهر تعلقه بشيء لأن ظفره قائم على أن لا يمس شيئاً إلا بيد من رخام دهنت بالزيت كيلا يعلق عليها أثر مما تقبض عليه

إذا كنت نزقاً وأردت أن تحيا ، فتدرب على القتل لأن في الخمر ما يقودك الى المشاغبة ، وإذا كان لك ضمير فاحترس من الساعة التي تلقي فيها رأسك على الوساد ، لأن الفاسق إذا ندم بعد فوات الأوان يشبه مركباً اخترقته مياه البحر فليس له عن موقفه متقدم ولا متأخر ، فلا يسير الى العباب ولا يعود الى البر وعبثاً تدفعه الرياح إذا جذبته اللجج ، إنه ليدور على نفسه ويغور . .

إذا كان لك جسد فاحذر الأوجاع ، وإذا كان لك روح فاحذر القنوط ، بل احذر الناس بأسرهم ، أيها الشقي ، فانك ما دمت سائراً في طريقك التي تخيرت لتشهد سهلا فسيحا تدور عليه حلقات الراقصين متماسكات متتابعات كدوائر الأزهار ، ولكن ما تشهده ليس إلا سراباً خادعاً في قاحل الصحراء

إن الناظرين الى مواطىء أقدامهم يعلمون أنهم ينسحبون على صراط ممتد فوق نهر عميق ولكم تهاوى إليه السائرون فضمهم الى سكونه فانطبقت عليهم صفحته الهادئة دون أن تتجهم

حذار أن تزل بك القدم فان الطبيعة لتتراجع عنك بما في أحشائها من حياة فتنكرك ، حتى الأشجار الباسقة وأماليد الغاب

لقد خرقت شريعة أمك فأنكرك كل رضيع من إخوتك في الحياة

إحذر غضب الله ، أيها المنفرد ، لأنك تنتصب أمام وجهه الكريم متحجراً كالصنم على قاعدة إرادتك المتمردة فما تفدق السماء عليك رشاشها إلا لتفت من أعضائك وتذيب هيكلك ، وما يهب الهواء عليك لينفحك بقبلة الحياة وهي قبلة التوحيد بين جميع الاحياء ، بل يعصف عليك عصفاً ليهزك ويقوضك تقويضا . إن كل امرأة تضمها إليك ستجتذب شرارة من قوتك دون أن تبادلك شرارة من قوتها . فما أنت إلا حقيقة تترامى متهالكة على أشباح وحيث تسقط نقطة من عرق جبينك تنبت شجرة من مظالات القبور

مت ، فما أنت إلا عدو لكل من يحب ولكل ما يحب ... إنقبض على ذاتك في عزلتك وانفرادك ولا تتوقع أن تبلغ نهاية عمرك ، إذهب ولا تبق منك على الأرض نسلا تستبقي فيه للحياة دماً من دمك الفاسد

تبدد كالدخان ولا تحرم بظلك حبة القمح النابتة من نور الشمس . »

وما انتهيت من هذا الخطاب حتى استلقيت على المقعد وقطرات الدموع تتساقط من عيني ، وأنا أعول قائلا : أليس هذا ما قلته لي أنت يا ديجنه ؟ أفما كنت تعرف هذا من قبل ؟ وإذا كنت عرفت فلماذا لم تتكلم

وكان ديجنه مشبكا أنامله ، وقد علته صفرة

الموت وانهمر الدمع من عينيه

وساد بيننا السكوت . وقرعت الساعة فذكرتني فجأة انني في مثل هذا اليوم وهذه الساعة منذ سنة تكشفت لي خليلتي مخادعة خائنة

فصحت بديجنه : أتسمع دقات هذه الساعة ؟ أتسمعها ...؟ إنني لا أعلم بماذا تنذرني ؟ ولكنني أشعر انها ساعة رهيبة سيكون لها شأنها في حياتي

وكنت أتفوه بهذه الكلمات وأنا مسلوب الارادة مضعضع الحواس ، وفتح الباب فجأة في تلك اللحظة نفسها ، ودخل القاعة أحد الخدم ، فأخذ بيدي وانتحى بي إلى زاوية وأسر إلى قوله : أتيت لأخبرك ياسيدي بأن أباك على فراش الموت فقد أصيب بالشلل ، ولا أمل للأطباء في حياته

الجزء الثالث

الفصل الأول

وكان والدي يقطن ضاحية قريبة من باريس . وعند ما وصلت إلى المسكن رأيت طبيباً واقفاً أمام الباب فقال لي : لقد وصلت متأخراً ، وكان أبوك يتمنى لو يراك للمرة الأخيرة

دخلت فاذا والدي مسجى وقد فارقته الحياة فقلت للطبيب : أرجوك أن تبعد كل من في الغرفة دعني وحدي فقد كان لوالدي ما يقوله لي ، ولسوف يقول كلمته الآن

وخرج الخدم فتقدمت إلى السرير ورفعت الغطاء عن وجه الميت ، ولكنني ما ألقيت نظري عليه حتى تراميت لتقبيله فأغمي عليّ

ولما أفقت على فراشي في غرفة أخرى سمعت من حولي يقولون : لا تدعوه يذهب وإن أصرّ . انتظرت حتى رقد جميع من في البيت وأخذت مصباحاً وتوجهت إلى غرفة الميت فوجدت فيها كاهناً فتياً جالساً قرب السرير ، فقلت له : لا حق لك بأن تنازع ولداً ليلة أخيرة يقضيها قرب أبيه . لاأعلم ماذا قيل لك بشأني غير أنني أرجوك أن تدخل إلى الغرفة المجاورة وأنا أتخذ على عاتقي كل تبعة قد تقع عليك

ذهب الكاهن فقعدت مكانه ومددت يدي أكشف المرة الثانية عن هذه اللامح التي قضى علي بألا أراها بعد

وخاطبت الميت قائلاً : ماذا كنت تريد أن تقوله لي يا أبي ؟ لقد أدرت لحاظك مفتشاً عني قبل انطفاء عينيك ، فما كانت فكرتك الأخيرة ياترى ؟

وكان والدي يكتب مذكرات يدون فيها وقائع أيامه ، وكان كتاب هذه المذكرات مفتوحاً على الخوان فقدمت إليه وجثوت فاذا على الصفحة الأخيرة هذه الكلمات :

(الوداع يا ولدي . . . أحبك . . . وأموت)

جمدت دموعي واختنقت زفراتي ، فكأن يداً شدت على عنقي وختمت على فمي . فوقفت شاخصاً بالميت المسجى أمامي . وما كان في حياته يجهل ما كانت عليه حياتي ، فقد كان يشكوني إلى نفسي ويوجه إلي التقريع ، وما اجتمعت به مرة إلا وحدثني عن مستقبلي ، وتناول باللوم ما تى شبابي . ولكم أنقذتني نصائحه من تهلكة ، فقد كان لارشاده

قوته المستمدة من فضيلته لأنه كان مثال الدعة ومكارم الأخلاق . وقد كان يتمنى لو يراني قبل موته ليردني عن السبيل الضلول الذي توغلت فيه ، ولكن المنية عاجلته فلم تدع له إلا كلمة واحدة يقولها ، فقال : إنه يحبني ...

الفصل الثاني

وكان قبر والدي يحوطه سور من خشب ، لأنه أراد أن يدفن في مقبرة القرية ، فكنت أذهب كل يوم لأقضي ساعات على مقعد صغير كان موضوعا داخل السور ثم أعود إلى المسكن الذي كان يقطنه ولا رفيق لي إلا خادم واحد

مهما فعلت أحزان الشهوات في النفوس فما هي إلا آلام حياة ، وهل تقاس آلام الحياة بأحزان الموت ؟ إن أول ما تبادر إلى ذهني حين وقفت إلى جنب سرير والدي الميت هو أنني ولد جاهل لا يعلم شيئاً ولا يعرف شيئاً ، وعند ما ربط الأسى على قلبي شعرت به كالم في جسدي حتى كنت أتلوى كمن أفاق من غفلة فشعر بجهله وأحس بآلامه

ومضت الشهور الأولى علي في الضاحية وأنا ذاهل لا أذكر الماضي ولا أبالي بالمستقبل . فما كنت أشعر أن من عاش فيما مضى كان إياي ، وما كان ما يستولي علي في ذلك الحين ليشبه آلام اليأس الثائر التي كانت تقبض علي من قبل ، بل كان نوعاً من الجمود والتعب فكأنني كرعت السآمة فوجدت لها مرارة تتشنج لها أحشائي

وكنت أجلس طيلة نهاري إلى كتاب أتصفحه ولا أقرأ ، بل أنظر إليه لأعيش في أجواء تشبه العدم لأنني كنت فقدت التفكير فاستغرقت في سكينة مطبقة . فان ماصدمت به كان من العنف والاستمرار على قوة نالت مني حتى غدوت كالمسلوب تنقر أعصابه فلا تجيب

وكان خادمي لا ريف شديد التعلق بوالدي ولعله كان خير الناس بعده في تقديري ، وكان من سنه ومن قده ويلبس ما يهبه إياه من أثوابه ، وقد وخط الشيب شعره بعد أن قضى عشرين سنة في خدمته ، فاقتبس شيئا من حركاته

وكنت بعد المشاء أتمشى في الغرفة فأسمع وقع أقدام خادمي يتمشى أيضاً في الدار وما كان يدخل إلى الغرفة بالرغم من تركي الباب مفتوحاً ؛ ولكننا كنا نلتقي من حين إلى حين فيرى أحدنا الآخر من خلال دموعه ، وهكذا كانت تمر لياليا ، فما كنت أطلب من الخادم إشعال المصباح إلا بعد أن يكون مضى وقت طويل على غروب الشمس

وكان البيت لم يزل على ترتيبه القديم ، فما زحزح الخادم ولا أنا ورقة من موضعها ، فكان مقعد والدي لم يزل قرب الموقد ، وبقي الخوان والكتب والرياش في مواضعها ، وكنت أحترم الغبار الذي علا هذه الأشياء ، وعند ما كنت أرتدي مبادل أبي وأسترخي على مقعده كان يخيل إلي أن في الجدران عيوناً ترمقني بلحظات الاشفاق ، وأنني أسمع همساً يقول : أين مضى الوالد . . فما يتربع على كرسيه الا اليتيم . .

ووردت إلي بعض الرسائل من باريس ، فأجبت الجميع أنني أنوي تمضية الصيف في الضاحية وحدي جريا على عادة أبي ، وبدأت أدرك أن في

كل شر بعض الخير ، وأن الآلام العظمى مهما قيل فيها راحة عظمى ، فاذا ما تكشف القدور لنا من علم غيب الله فانه ليصدعنا لينبهنا من غفلات الحياة ، وإذا ما تكلمت هى أسكت صوتها كل صوت ، وإذا كانت الآلام الموقوتة تجدّف شاكية ظلم السماء ، فان الآلام المستمرة الكبرى لا تجدف ولا تشكو بل تخضع وتتنبه لتسمع وتعى

وكنت كل صباح أقف الساعات الطوال متأملاً فى مشاهد الطبيعة ، وكانت نوافذ غرفتى تطل على واد عميق يرتفع من وسطه جرس المعبد على قبابه ، فكان كل ما يمتد نظرى عليه ينم عن البساطة والفقر ، وما كانت مشاهد الربيع بأزهاره المتفتقة وأوراقه الفضة لتثير فى نفسى ما يتخيله الشعراء من التفجع ، إذ يرون فى انجلاء الحياة ابتسامة ساخرة بالموت ، ولا أرى من يقول بهذا القول إلاّ مغالطاً أو شاعراً بقلب لم يتكامل الشعور فيه

إن من يخرج عند بزوغ الفجر من قاعة القاهرة وقد فرغت يده يمكنه أن يشعر أن بينه وبين الطبيعة عداء وتضالا ، فهو أمام أنوار الشفق كمصباح ليلة فاجرة ... ولكن ما يمكن أن تسر به الأوراق المطلة من غصون الربيع للولد المنتحب على أبيه ؟ وما دموع عينيه إلا أخوات الأنداء ، وهل أوراق الصفصاف نفسها إلا قطرات دموع ؟

لقد نظرت طويلاً إلى السماء والغاب والمروج ، فأدركت أن تعزية الناس للناس إنما هى تعلة من بنات الخيال ؛ وما كان لاريف ليخطر له أن يعزى نفسه أو يوجه إلىّ عبارات التعزية ، فقد كان هذا الرجل يخشى أن أبيع البيت وأذهب به إلى باريس ولعله كان مطلعاً على حقيقة حياتى الماضية إذ كانت تبدو عليه دلائل القلق فى أول الأمر ، ولكنه عند ما رآنى أعد المنزل لأقيم فيه شمرت بنفوذ نظراته إلى أعماق قلبى ، وكان ذلك يوم استحضرت من باريس صورة كبيرة لأبى علقتها على جدار غرفة الطعام ، ولما دخل لاريف ورأى هذه الصورة أخذه الذهول وبدأ ينقل نظراته من رسم والدى إلى وجهى وفى هذه النظرات من تساوى الحزن والفرح ما يصعب التعبير عنه ، فكأنه كان يقول لى : يا للسعادة ، لسوف نستغرق بسكون فى حزننا

ومددت له يدى فأوسعها تقبيلا ، وكان هذا الخادم يعتنى بأحزان سيده كأنها سيدة أحزانه ، وكنت كلما ذهبت فى الصباح إلى القبر أرى أنه سبقنى إليه وسقى أزاهيره لينسحب عند وصولى ويخلى لى المكان

وكان يتبعنى عند ما أمتطى جوادى وأذهب متنزهاً فى الغاب ، فأراه قد أطل علىّ فى الوادى ماشياً يسير ورائى وهو يمسح عرق جبينه لاهثا ، فاشتريت له فرساً من أحد الفلاحين ، وهكذا أصبحنا كلانا نذهب متجولين فى الغاب

وكان فى القرية من معارف أبى من كانوا يزورونه أحياناً ، ولكننى اضطررت إلى قفل بابى دون كل زائر وإن صعب ذلك علىّ ، فما كان لى جلد على مقابلة أحد

وفكرت يوماً أن أطلع على أوراق والدى ، فقدمها لى لاريف بيد خاشعة مرتجفة . فمك رباطها ونثرها أمامى ، وما تلوت الصفحات الأولى منها

حتى شعرت بانتعاش كأن نسمات عليلة هبت علىّ من جوانب بحيرة صافية ساكنة ؛ وكنت كلما قلبت صفحة ونفضت عنها غبار الزمان ، عبقت منها كالعطر حياة أبى تتوالى يوما بعد يوم ، فأعد فيها خفقان فؤاده وأستعرض وقائعها كحقول مساع كلها جد ، وقد نبتت فى كل جوانبها أزاهر العطف والنبل ، وتمازجت ذكريات حياته بتذكار موته ، فكنت أتتبع هذه الحياة تتحدر كالجدول الصافى نحو بحر الموت

وهتفت فى صمتى : أيها الرجل الصالح الذى لم يعرف الخوف ولم يتدنس بلؤم لكم كنت طاهراً فى جهادك ، ومخلصاً فى ولائك ، ووفياً فى حبك لزوجك أمى ، لكم كنت معجباً بالطبيعة ، ومتعبداً لربك ، فحصرت فى هذه العواطف كل حياتك ، ولم تدع لسواها منفذاً إلى قلبك ، فما كانت الثلوج على أعالى الجبال بأنقى من ناصع شيبك فى شيخوختك الصالحة ، ألق هذا الشيب على رأسى يا أبى فان فيه من الشبيبة ما ليس على شعرى الذهبى . هبنى أن أعيش كما عشت أنت وأن أموت كما مت ، فانى أريد أن أغرس فى التراب الذى يواريك غصناً ناضراً لحياتى الجديدة فأسقيه من دموعى والله راعى كل يتيم ، ينمو هذا الغرس المقدس ليظلل أوجاع ولد وتذكار شيخ ...

وبعد أن اطلعت على الأوراق جميعها ، قررت أن أدون أنا تذكارات أيامى فأعددت لها كتابا على مثال كتاب والدى ، وبدأت بالسير على آثاره وطبع حياتى على غرار حياته . فكانت الساعة كلما دقت تذكرنى بحركة من حركات أبى وسكنة من سكناته فكنت أتبع فى الطعام والقراءة والتنزه الخطة التى اتبعها هو فتعودت الحياة الهادئة المنظمة تدخل الطمأنينة إلى قلبى طول نهارى ، حتى إذا جاء المساء رقدت مستكناً وأنا أشعر بالغبطة حتى فى أحزانى

وكان والدى شديد الميل إلى العمل فى الحديقة فيوزع أوقاته بعد حرثها توزيعاً متساويا بين الطالعة والتنزه فيعطى لعقله ولجسده ما يحق لكل منهما واقتديت بأبى أيضاً فى أعمال البر متمماً ما بدأ به فكنت أذهب مفتشاً عن من أتمكن من مد يد المساعدة لهم ، وعددهم وفير فى الوادى حتى اشتهرت بينهم . وهكذا لأول مرة فى حياتى شعرت بالسعادة فليس كراحة ما يطهر الأحزان ويقدسها . فقد بارك الله دموعى فتعلمت الفضيلة من الآلام ...

(يتبع) فليكس فارس

مكافأة

لمن يدل على القاتل

تعطى مجلة « الرواية » مكافأة وقدرها ٥ جنيهات لمن يدل على القاتل فى القضية المشار إليها فى « يوميات نائب فى الأرياف » للكاتب الكبير الأستاذ توفيق الحكيم التى تنشرها المجلة تباعاً على أن تصل الردود إلى المجلة قبل أول يوليه مع بيان الأدلة بوضوح وإيجاز